مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 11 / العـدد: 02 (2023)، ص: 1604-1626

الليبرالية و سؤال التصعيد من الرفض الكبير إلى مقاومة البعد الواحد عند هاربرت ماركيوز

Liberalism and the question of escalation from the great rejection to the one-dimensional resistance by Herbert Marcuse - a Critical Inquiry by Herbert Marcuse

ط.د فضيلة عبد الكريم [1]، أ.د موسى بن سماعين [2]

[1] مخبر حوار الحضارات والعولمة ، جامعة باتنة 1

abdelkrim.fadhila@univ-batna.dz

[2] مخبر حوار الحضارات والعولمة ، جامعة باتنة 1

Bensmaine1963@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/01/14 تاريخ القبول: 2023/08/05 تاريخ النشر: 2023/10/06

ملخص: تتناول هذه الورقة البحثية مساءلة الليبرالية و مايحيط بها من منجز بحياة الأفراد وما تم تدوينه بالمتن الفلسفي الماركيوزي لتحقيق تلك المقاربة المرجوة للوقوف على التماس من مشكلات الفكر الليبرالي و تطبيقاته ، من هذا المنطلق كان المشروع النقدي لهاربرت ماركيوز محاولة للاقتراب من الإنسان لا كتفكير تجريدي بل كأنطولوجيا واقع مرتبط باللحظة التاريخية و بالمجتمع الذي يحدد المعطيات و الإمكانيات التي يجب أن تمارس من خلالها نتائج التفكير و هو مايحصل بالفعل بالمجتمعات التي جعلت من الليبرالية أنموذجا حيا لقضاياها السياسية و الإقتصادية ، و هي محاولة لدعم الانتقال من فهم الواقع إلى تغييره وفق نظرة هاربرت ماركيوز التي أطلق عليها مفهوم الرفض الكبير لمقاومة البعد الواحد الذي أفرزته الليبرالية بكل محطاتها التي كانت تجدد حمولتها الفكرية من حين لآخر لتجعلها من الممكنات و المرافقة للمتغييرات الاجتماعية و التاريخية .

الكلمات المفتاحية : الليبرالية ، هاربرت ماركيوز ، الرفض الكبير ، المقاومة ، المشروع النقدي .

Abstract:

This research paper deals with the questioning of liberalism and what surrounds it in terms of what has been accomplished in the lives of individuals, that are cut off from all links with the human world and does not achieve that desired approach to find out about the problems of liberal thought and its applications. and this is what actually happens in societies. Which made liberalism a living model for its political and economic issues, and it is an attempt to support the transition from understanding reality to changing it according to Harbert Marcuse's view, which he called the concept of the great refusal to resist the one dimension that liberalism produced with all its stations that were renewing its intellectual load from time to time to make it possible And accompanying social and historical changes.

Keywords:
Liberalism, Herbert Marcuse, The Great Rejection, Resistance, The Critical Project.

***المؤلف المرسل:** فضيلة عبد الكريم

1. مقدمة

إن الحقيقة المعرفية التي يصل إليها العقل الباحث في مجالاتها المختلفة تعبر عن تراكم تجارب واقع الحياة الاجتماعية و متغيراتها التاريخية ، من هذا المنطلق كان لسؤال البحث عند هاربرت ماركيوز زوايا و مرتكزات جعلت من خبرته التي اكتسبها من مشكلات راهنه و اطلاعه على الفلسفات التي حاولت أن تتناول المساءلة في قضاياها الليبرالية و مايحيط بها من منجز بحياة الأفراد وما تم تدوينه بالمتن الفلسفي المفارق أحيانا للقضايا الجوهرية و العينية التي تنقطع عن

جميع الروابط بعالم الإنسان و لا تحقق تلك المقاربة المرجوة للوقوف على التماس من مشكلات الفكر الليبرالي و تطبيقاته ، من هذا المنطلق كان مشروعه النقدي محاولة للاقتراب من الإنسان في معناه العيني لا المجرد ، و هو وجود لا يمكن أن يفهم بمعزل عن اللحظة التاريخية وعن المجتمع الذي يحدد المعطيات و الإمكانيات التي يجب أن تمارس من خلالها نتائج التفكير و هو مايحصل بالفعل بالمجتمعات التي جعلت من الليبرالية أنموذجا حيا لقضاياها السياسية والإقتصادية و كل ما يتعلق باليومي ، و هي محاولة لدعم الانتقال من فهم الواقع إلى تغييره وفق نظرة هاربرت ماركيوز التي أطلق عليها مفهوم الرفض الكبير **The Great Refusal**

و هو الهدف الذي وضعت من خلاله الأسس النقدية لمقاومة البعد الواحد الذي أفرزته الليبرالية بكل محطاتها التي كانت تجدد حمولتها الفكرية و جعلها قابلة للتكيف مع كل المتغيرات الاجتماعية و التاريخية ، لذلك سنحاول في هذه الورقة البحثية أن نقف على واقع الليبرالية و إفلاس المجتمع الحداثي و تهديد ذاته بذاته و هي وضعية مستعصية على التحليل الدقيق ، و من خلال النقد الاجتماعي الذي انتهجه ماركيوز بمشروعه سيكون لنا الولوج للمشكلة التي بدأت بالسيطرة على الطبيعة لتنتهي إلى السطو على وعي الإنسان و يدخل بذلك إلى حالة من التنميط التي جعلت الرفض غير مقبول و كأن نموذج المجتمع الليبرالي نهاية ظاهرة المتغيرات الاجتماعية بكل مافيها من فكر و علاقات، و و كأن التفكير يتحرك بمساحة محددة للإنسان بالمجتمع الليبرالي و المابعد سيكون تحت سلطة السائد و الأمل حلم بعيد التحقق ، لذلك يعد أفق النقد المغلق هو حالة من السكون الذي لا يقبل الحفر في حيثياته و اختلافاته ، فالكل وفق منطق الشمولية و الكليانية ، سيكون لنا تحليل لمعنى الرفض بمنجزه (الإنسان ذو البعد الواحد) و دراسته النقدية بفلسفات النفي التي تعكس مشروعه النقدي .

الإشكالية :

_ هل يعد الرفض الكبير تفكيرا ثوريا في مقاومة واقع الليبرالية على المجتمعات الغربية المعاصرة ؟ و_ كيف قدم لنا هاربرت ماركيوز واقع البعد الواحد من خلال مشروعه النقدي ؟ _ هل نجح الرفض الكبير في صناعة وعي جديد قادر على مواجهة الوضع القائم الذي فرضته الليبرالية بمنظومة فكرية يصعب معها الاختيار و المقاومة ؟

فرضية البحث: بهذه الورقة البحثية نضع افتراضا و هو أن الليبرالية قد ذهبت بعيدا في تطبيقاتها و تأثيراتها على اليومي لحياة الأفراد مما جعل الواقع يستعصي على الممكن ، ومنه كانت مساءلة هاربرت ماركيوز من منظور فكرة الرفض الكبير و التي انطلق فيها من جهاز مفاهيمي لفلاسفة الحداثة ليقف على نفس المسافة من الجميع ، فوجه النقد من داخل منظومة هذه الثقافة الأداتية من أجل صياغة واقع جديد .

منهجية البحث: المنهجية المعتمدة بين التحليل و استقراء الفكرة بالتركيب وبالبراهين التي تقربنا من الواقع و فق الصياغة النقدية بالمتن الماركيوزي مع المنهج المقارن لضبط فكرة البديل الذي يعمل على بناء الحجة العقلية وفق المعطيات الخاضعة للعيني و الذي تتطلبه الوقائع و الأحداث و نتائج هذه المساءلة النقدية .

هدف البحث: يتحدد الهدف من خلال الدور الذي تصدره ماركيوز في الفكر النقدي بمدرسة فرانكفورت على مستوى التنظير بهدف تفعيل الرفض الكبير في واقع الحياة الفكرية اليومية في المجتمعات التي شهدت انتشار الثقافة الاستهلاكية و القائمة على الفكر الأداتي من أوروبا الغربية إلى الولايات المتحدة ، لذلك كان من الضروري أن يجتهد النقد و ينقل الفكر من التوظيف العقلي الخالص إلى النقد الاجتماعي المحايث و المحاكي للواقع الأداتي و المفرط في الحرية .

2. المفهوم الإصطلاحي لليبرالية و الرفض

1.2 مفهوم الليبرالية لغة

مصطلح الليبرالية يشير إلى الحرية والتي اشتقت من كلمة **Liberalism** في الإنجليزية و **Liberalisme** في الفرنسية، ويعود اشتقاقها إلى **Liberty** في الإنجليزية أو **Liberte** في الفرنسية و تعني الحرية (صليبا، 1982م، صفحة 564)و كذلك ما يليق بالرجل الحرّ و الشخص الكريم و النبيل و هذا ما أكده الطيب بوعزة (بوعزة، 2007، صفحة 19)

و ترجّح معظم الموسوعات العالمية أن مصطلح الليبرالية مشتق من الكلمة اللاتينية **liber** والتي تعني الحُر، و الليبرالية **liberalism** مفهوم دخل إلى اللغة الإنجليزية والفرنسية بحكم التواصل الثقافي مع الحضارة الإغريقية ، ويعود ظهورها في كل من فرنسا وإنكلترا وهولندا إلى القرن السادس عشر، إذ أصبحت إحدى أهم مفردات الثقافةا لسياسية الأوربية و ويصعب على الباحثين اليوم وضع تعريف جامع ومانع لهذا المصطلح، إذ تعترف موسوعة لالاند الفلسفية بالالتباس الحاصل في هذا المصطلح ولا سيما مع تشعب المفاهيم المتداولة له بين الأحزاب والحركات السياسية، كما تقرّ الموسوعة العربية العالمية بغموض هذا المصطلح لتبدل معناه بصورة ملحوظة مع مرور الزمن ، و الملاحظ أن الليبرالية برزت كحركة سياسية خلال عصر التنوير، عندما أصبحت تحظى بشعبية بين الفلاسفة والاقتصاديين في العالم الغربي، حيث رفضت الليبرالية المفاهيم الشائعة في ذلك الوقت من امتياز وراثي، و ملكية مطلقة والحق الإلهي للملوك. وقد استخدم الثوريون البارزون في كل من الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية الفلسفة الليبرالية ليبرروا الإطاحة بالحكم الاستبدادي لتبدأ الليبرالية بالانتشار و

التوسع خاصةً بعد الثورة الفرنسية ، حيث شهد القرن التاسع عشر تأسيس حكومات ليبرالية في دول أوروبا و أمريكا الجنوبية و الشمالية .

اصطلاحيا : جاء في موسوعة لالاند الفلسفية أن : " الليبرالية هي الاستقلال عن المؤثرات الخارجية و هي أنواع ليبرالية مادية ، ليبرالية سياسية ، ليبرالية مدنية ، ليبرالية دينية ، ليبرالية اقتصادية " ((لالاند، 2011، صفحة 22) لذلك تعد الليبرالية مصطلحا متعدد المفاهيم و التحليلات ،أما بالنسبة " لجون ستيوارت مل" فيعد الأب الروحي للفكر الليبرالي فيعتبر الليبرالية حالة اجتماعية و سياسية تتمثل في إطلاق العنان للناس ليحققوا خيرهم بالطريقة التي يرونها و تخدمهم طالما لا يحرمون الغير من مصالحهم أو لا يعوقون جهودهم لتحقيق تلك المصالح ، فكل فرد يعد أصلح رقيب على ثروته الخاصة سواء كانت هذه الثروة جسمانية أم روحية أم فكرية التي يتمتع بها كل إنسان بمقدار الجهد الذي يقوم به ، فهذه الحرية متاحة للجميع لتحقيق منافعهم و لكن بشرط احترام حرية و ثروة الآخرين و منافعهم ، و عليه فالليبرالية منظومة فكرية شاملة تعطي تصورا عن الإنسان وغاية وجوده وأسباب سعادته وفق المنفعة ، لذلك ارتبطت بنموذج الفلسفة البراجماتية بشكل خاص و كل التيارات المادية و التي تجعل من الحرية المطلقة الفكرية و الشخصية عموما أولوية ، في نظام سياسي و فكري له تأثيره النسقي و نجاحاته التي حققها على الأرض وروج لها بسلطة الفكر و المال والسياسة ، و جاء بمعجم اللغة الفرنسية على الخط في تحليل مصطلح الحرية بأنها :" تعرّف بشكل سلبي على أنها غياب القيد ، و بشكل إيجابي حالة الفعل لما نريد ، و الحرية مفهوم حديث بالطرح الفلسفي حيث لم يتحدث الإغريق عنها كثيرًا ، معتبرين أن الإنسان يجب أن يعكس الكون بدلاً " (**humaines, 2008, p. La philo**) مما جعل الحرية من تطلعاته الخاصة .

و عليه تعد الليبرالية موضوعًا رئيسيًا للتفكير، و التمركز حول القدرة على التصرف دون قيود، أو سلطة التصرف دون قيود خارجية ، فهي قوة خاصة بالإنسان ليكون السبب الرئيسي لأفعاله ويختار بين الخير والشر و هي السبب الأول للفعل لبدء سلسلة سببية، و من الناحية السياسة تعبر عن حالة الإنسان الذي يقاوم العبودية وفق إمكانية التصرف التي يمنحها القانون للفرد بالدولة .

لذلك يعتبر مصطلح الليبرالية فضفاضا بل غير واضح لحد بعيد ويحتاج إلى تحليلات متعددة تبعا للفهم المختلف من تصور إلى آخر و من تطبيق إلى آخر، لأن الممارسة بين البلدان الغربية و باقي نماذج الليبرالية بالعالم تعتمد الفكرة الشاملة للمفهوم أما التفاصيل فتتركها لطبيعة المجتمعات و الظروف السياسية و الإقتصادية ، و منه تعد الليبرالية مذهبا فكريا يعتمد على الحرية الفردية و التي تفرض وجوب احترام استقلال الأفراد ، أما وظيفة الدولة الأساسية هي حماية الحريات من حرية التفكير، والتعبير، و الملكية الخاصة، والحرية الشخصية، بالإضافة إلى نظام اقتصادي للسوق الحرة وغيرها، لهذا تسعى الليبرالية إلى وضع قيود على السلطة وتقليل دورها وإبعادها من التحكم في الحريات الشخصية وتوسيع الحريات المدنية .

2.2 مفهوم الرفض

لغة : المعنى اللغوي لكلمة الرفض هو ما جاء في لسان العرب ، إذ يورد ابن منظور ثلاثة مفاهيم للرفض متقاربة مع المعنى إلا أنها مختلفة الدلالة :" الرفض ترك الشيء ، تقول : رفضت الشيء ، أرفُضه بضم الفاء و أرفضة بكسر الفاء ، رفْضا بتسكين الفاء و رفَضا بفتح الفاء : تركته و فرقته ." (منظور، 2016، صفحة 393) هذه الدلالة اللغوية تضعنا أمام المعنى اللغوي و الذي يحيلنا على الضد و هو القبول ، و الرفض ليس كالقبول .

اصطلاحا : لا يختلف عن المعنى اللغوي ، لأنه يشير إلى مقاومة الإرادة :" لدافع معين أو رفضها التصديق بالأمر أو تأييده و الانقياد له ، و قوله(لا) عند رفضه أدل على قوة إرادته من قول (نعم) شريطة أن لا يكون رفضه ناشئا عن دوافع غريزية عمياء " (صليبا، 1982م، صفحة 618) لذلك تبرز قوة الإرادة في التحرر من القبول الدائم و الرفض لما يجب أن نقول بحقه (لمقاومة دافع معين .

و عليه تعد هيمنة الأديولوجيا الرأسمالية و الليبرالية على الفلسفة الغربية من المظاهر التي جعلت الإرادة بمأزق حقيقي من خلال واقع الإنسان الذي حولته إلى بضاعة أو سلعة أو أداة تحقق من خلاله غاياتها، فرفعت الفرد فوق المجتمع والدولة ، و مقابل ذلك ظهرت الشيوعية بأديولوجيا الإشتراكية حيث أدى الوضع إلى غياب الفرد وقمع حريته وسلبت ملكيته حتى عانى من اغتراب آخر وهو يعيش في دولة يقودها العمال. وكان نتيجة ذلك أن ظهرت حركة أو تفكير جديد على صعيد الفكر في أوروبا حاول مجابهة وتحدي الفوضوية التي جاء بها الفكر الليبرالي والاتجاه الرأسمالي، و الجمود الذي جاء به الاتجاه الشيوعي ، هذا الإتجاه هو مدرسة فرانكفورت التي أكدت بمنهج الأسلبة و الذي رجعت فيه إلى فلسفة هيجل لتثير قضايا راهنها و الخطر الذي يهدد المجتمع بفكرة التقدم غير المحدود، و وعود المجتمع الصناعي ، و قيم السيطرة على الطبيعة والوفرة المادية ، و الرفاهية للأغلبية العظمى للأفراد، والحرية الشخصية بأفق لامحدود ، وعود رافقت المجتمع الغربي منذ بداية العصر الصناعي و نشر الفكر التنويري ، هكذا كانت المواجهة النقدية لمدرسة فرانكفورت بمنهج الأسلبة . و يمكننا كذلك إدراك معنى الرفض عند غاستون باشلار بأنه :" ليس مذهباً سلبياً من الوجهة النفسانية ، وهي لا تؤدي في مواجهة الطبيعة إلى مذهب عدمي " ((باشلار، فلسفة الرفض ، 1985، صفحة 5) الرفض كمفهوم عام لا يقتصر في معناه على فعل الرفض،

وإنما ينفتح على معان أخرى مثل الإحساس العميق بالأزمة والسخط وانحدار القيم و العدمية ومنه يحدث الغضب الذي يسبق الرفض .

لذلك كانت المساءلة المتجددة لحظة فارقة لممارسة الرفض على الجوانب التي لا يمكن القبول بها و منه :" بدأ تيار الإنتاج الفلسفي الغربي الجديد يغدو مدججا بالتساؤلات الجديدة التي انبثقت عن أكثر من فيلسوف ، توزعت نتاجاتهم على مختلف التخصّصات الفلسفية مثل فلسفة العلم ، الفلسفة السياسية ، الفلسفة الأنثروبولوجية بفرعيها الثقافي و الإجتماعي ، فلسفة الفن ، المجال الفلسفي السيكولوجي ، الفلسفة الأنطولوجية ، فلسفة الجماليات والفنون الحديثة التي لم تكن الفلسفة تتطرق إليها من قبل مثل السينما " ((طاهر، نهايات الفضاء الفلسفي : الفلسفة الغربية بين اللحظة الآنية و المستقبل ، 2005، صفحة 12) فالأسلبة تستحدث قضايا إبستيمية جديدة و راهنة نتيجة للتسريع الزمني الذي تشهده التغييرات الجذرية مع بداية نهاية الفضاءات التقليدية للفكر الفلسفي الغربي و مواجهة أزمة البنية الذهنية الأداتية .

3. الرفض الكبير و مقاومة الهيمنة بالفكر النقدي الماركيوزي :

1.3 الرفض كمقاومة للهيمنة :

إن طبيعة الأشخاص الذين يقوموا بفعل الرفض لم يعد تمركزهم حول الطبقة العاملة بوصفها لم تعد تحمل ذات التعريف التقليدي الماركسي، فالرفض الكبير يمتد ليشمل الجماعات المهمّشة والفئات التي يتم طردها من الفضاء العام و النشاط اليومي ، و عليه فالليبرالية يكون فيها الفرد مسؤولا عن صناعة حريته من خلال العقد الاجتماعي، لأنه من ناحية عملية تعتبر الدولة الليبرالية فاعلة من خلال توفير الظروف الملائمة لتوسيع الحرية و معايشتها ، مما يسمح بتوسيع أفق السيطرة على متغيرات الظروف لا لكون حتمية الصراع قائمة

بين الفرد و الدولة بل كحالة تقارب عميقة وشاملة ، تتماهى من خلالها حالة الرفض و تعود من خلالها الليبرالية قوة واقع بموجب القانون الذي يحمي هذه المسافة التي لايبتعد فيها كل من الدولة و الفرد عن المنفعة المتبادلة ، مما يجعل الرفض كحالة وعي حاضرة بمفهوم النقد لكنها لا تملك الآليات الجديرة بالمواجهة للانحراف بكل ثقة .

من هذا المشهد لليبرالية الحديثة كان المشروع النقدي لهاربرت ماركيوز كتحليل اجتماعي للأوضاع السياسية لذلك أطلق على فلسفته بالحركة النقدية الاجتماعية التي جمعته بالنخبة الفكرية الرائدة لمدرسة فرانكفورت و التي تأسست بمطلع القرن العشرين ، و لكن لماذا وصف الرفض عند ماركيوز بالكبير و في بعض الترجمات العظيم ، و لكن من ناحية دلالية للظاهرة يمكن للوصف الأول أن يقترب أكثر و يقربنا من التعرف أكثر على السياقات الفكرية لهذا المنجز الفكري الذي يحسب لماركيوز و لمدرسة فرانكفورت . و من منطلق أن كتابات ماركيوز قد اهتمت بمسارين : الأول إعادة قراءة هيجل من منظور ماركسي، والثاني تحليل المجتمعات الصناعية المتقدمة تحليلاً نقدياً، فإن إعلان ماركيوز عن تجاوزه الماركسية الكلاسيكية و ضبطه للكثير من مفاهيمها كانت الخلفية الأساسية لحكمه على العديد من الظواهر في رفضه الكبير، مما جعله يعمل على توطيد أسس الماركسية من خلال مراجعتها و تجديدها ، و صفة الكبير تطبق هنا على الرفض بأبعاده الشاملة الاجتماعية و السياسية .

2.3 الرفض الكبير و مواجهة البعد الواحد عند هاربرت ماركيوز Herbert Marcuse 1889- 1979 م

صدر سنة2017م عن جامعة _ تيمبل _ **Temple** بالولايات المتحدة كتاب_ الرفض العظيم لهربرت ماركيوز والحركات الاجتماعية المعاصرة _ تقديم الكاتبة الأميركية الشهيرة " أنجيلا دايفس" الكتاب المؤلف من خمسة أقسام

الليبرالية و سؤال التصعيد من الرفض الكبير إلى مقاومة البعد الواحد عند هاربرت ماركيوز

يحوي إحدى وعشرين ورقة بحثيّة كتبها أبرز المفكرين و الناشطين السياسيين والأكاديميين الذين ينتمون لأجيال مختلفة ، هذه الأوراق تتمحور حول الحركات الاجتماعية والسياسية التي شهدها العالم من خلال أفكار الفيلسوف الألماني هاربرت ماركيوز، الذي صاغ مفهوم الرفض العظيم أو الكبير شارحاً تقنيات التغيير الاجتماعي والسياسي ضد الهيمنة السياسية في المجتمعات الرأسمالية حيث تدور أفكاره حول انتقاد الهيمنة الصناعية والرأسمالية على حياة الأفراد وتحويلهم إلى أدوات للإنتاج و الاستهلاك ، و تتضح هذه الفكرة في كتابه _الإنسان ذو البعد الواحد_ الذي يرى فيه أن المجتمعات الرأسمالية تلغي التفكير الجدلي لتجعل الإنسان ببعد واحد فاقداً الأمل بالتغيير،هذه الأفكار يمكن الخلاص منها عبر_ الرفض العظيم_ بوصفه تقنية للانعتاق من البعد الواحد والفكاك منه ، مؤكداً على قيمة الفن الذي يرى فيه وسيلة لتحرير الإنسان وتكسير القيود عن مخيّلته وبناء احتمالات لحياة أفضل للمجتمع ، و لكن لن تستقيم هذه الحياة إلا بتلك الفئات من الساخطين والمبعدين بوصفهم فئات فاعلة في عملية التحرر ، و يمتد ليشمل الجماعات الفرعيّة والمهمّشة والفئات التي يتم رفضها من الفضاء العام ، و تأتي هذه الدراسات لتجعل الرفض يتجاوز الصرخة نحو بنى متماسكة قادرة على مقاومة الوضع القائم وطرح بدائل تتجاوز البعد الواحد ، لذا نجد المُطّلع على كتاب _ الإنسان ذو البعد الواحد _ يكون في مواجهة جملة من الأسئلة لولوج قضايا العقل الحديث و نتائج واقعه بالمجتمعات الليبرالية . و هي التي سنثيرها في هذا التحليل لأن الشمولية كمأزق لم يستثني منها النظام الإشتراكي حسب رأي هاربرت ماركيوز ، هذا التحليل يضعنا في صميم النظرية الاجتماعية النقدية ذات التفاعل الفكري و الفلسفي بما يحمله من قضايا علم الإجتماع وعلم النفس و الجوانب الأدبية و الفنية ، حيث يصف الليبرالية بالبؤس اليومي :" كلما أصبح التحرر من البؤس ، ذلك التحرر الذي هو المضمون العيني لكل

حرية " (ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد، 1988، صفحة 38) لأن التحرر هو الفعل الذي يحققه طموح الحرية و انتقالها من الجانب الميتافيزيقي إلى النشاط الإنساني الاجتماعي و الاقتصادي و السياسي ، و هو بذلك قد عبر عن قدرته على إماطة اللثام عن مظاهر الاستلاب والتذويب الذي صار يمارسه المجتمع المادي الليبرالي على الفرد ، و وضح البنية الفكرية والثقافية الغربية وكشف رواسبها العلمية والفلسفية ، ذلك أن تفكير ماركيوز في متنه الإنسان ذو البعد الواحد قد حلل الظاهرة من داخل المجتمع المعاصر التكنولوجي الذي سهل الهيمنة على الفرد و هو يدافع عن الفردانية قبل الجماعة و الفضاء الإنساني ، مما جعل التغيير العيني مهمة شبه مستحيلة :" إننا نستطيع التمييز بين حاجات حقيقية وكاذبة ، فكلمة كاذبة هي تلك التي تفرضها مصالح اجتماعية خاصة على الفرد ، الحاجات التي تبرر عملا شاقا ، و تبرر العدوانية و البؤس و الظلم " ((ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد، 1988، صفحة 41) هذا التبرير الذي يصبح عقلانيا وسلوكا لا يمكن صده مادام يصب في مصلحة الأفراد الذين ينتفعون من البؤس والظلم ، بل وضع يقدم نفسه كقناعة لليبرالية في سلطتها التقانية لحل مشكلات الإنسان ، لينتقل التفكير إلى الكليانية و الشمولية :" تعاون تقني اقتصادي يتم تشكيله من خلال تدعيم نظام الاحتياجات الدائمة ، حيث يمنع هذا النظام أي معارضة ضد الكل " (عبدالرحيم، 2010، صفحة 151) هذا المجتمع القائم على الديمومة لتلبية الحاجات لم تكن في المجتمعات القائمة على المفهوم الزراعي أو البرجوازية بمفهومها التقليدي ، إذ كان الفرد دوما يفضح أدوات اشتغال تلك الفئة لصالح الجميع ، في حين تبدو السيطرة في المجتمع التكنولوجي المعاصر عقلانية ولها قدرة هائلة على احتواء المعارضة وأشكال الاحتجاج الممكنة ، عبر استباق كل مطالبة بالتغيير الاجتماعي و تحقيقه تلقائيا بالوسائل المتاحة والممكنة، و التصدي لمحاولات الحركات الراديكالية المطالبة بالتغيير لأنها من وجهة

نظر الوضع القائم متطرفة ، و أيضا تعد عملية التلبية قائمة بالفعل ، لكنها لا تعد واقعا يوتوبيا بل محاولة للتقرب من الدستوبيا و هو ما تهدف إليه النظرية النقدية : " فحتى الآن تعد النظرية النقدية للمجتمع بما فيها النقد الماركيوزي أحد المبادئ الأساسي للنقد و لا مجال فيها للتكهن اليوتوبي ، فالنظرية الاجتماعية تقوم بتحليل المجتمعات في حدود ما يمكنهم فعله " (**Marcuse,An Essay on Liberation 1971**) .

و هو بذلك يجعل من محاولته النقدية كمشروع نقدي مجتمعي يرغب في تحقيق ما يجب في حدود الواقع و لا يجعل من نقده للهيمنة الأداتية بحثا يوتوبيا كما يفهمه البعض من قراء منجزه ، و الأمر هنا ينطبق كذلك على من جعلوا من النقد الاجتماعي مشروعا فكريا لمعالجة واقع وعي الأفراد ، خاصة في تطبيقات الليبرالية و نتائجها التي انقلبت على الواقع ليصبح سجنا واسعا يصعب الإفلات منه . من هذا المأزق الذي ظهر مع بداية القرن العشرين كانت النظرية النقدية في مواجهة مباشرة مع الفلسفة إرث الفلسفة الحديثة و سلطة الهيمنة للفكر المادي مما فتح آفاقا واسعة لتحليل الواقع بكل نتائجه القيمية و الإبستيمية ، و يمكننا هنا التطرق لرأي أحد رواد مدرسة فرانكفورت الذين فتحوا المتن الفلسفي على المساءلة في مجال الإقتصاد السياسي فريديك بولوك _ **Frederick William Bulloc** _ حيث قدم دراسة بعنوان " رأسمالية الدولة : إمكاناتها و حدودها " سنة 1941م مفادها أن الدولة :" تلعب على نحو متزايد دور السوق في تنظيم العلاقات الاقتصادية الرأسمالية " (هاو ، 2003، صفحة 53) هذه الرؤية لها تجاوب مع أفكار ماركس و لوكاش ، مما أتاح التفكير بولادة مجتمع لا طبقي أو تخفيف الفجوة بين أرباب الاقتصاد و الطبقة الكادحة ، و عليه يعتبر مشروع النقد الماركيوزي محاربة للهيمنة الرأسمالية اقتصاديا وسياسيا من

منطلق الوحدة النظرية و المجتمع ، أي على أساس الممارسة الاجتماعية المعرفية في السياقات التاريخية العينية ، و بالتالي لا مناص للنظرية النقدية أن تنتهج المنطق الجدلي لأنه لا يسلّم بالثبات الجوهري للعلاقة بين الذات و الموضوع بقدر ما يعنيه التفكير النقدي و ما يحمله من وعي بالمشكلات التي يعيشها الإنسان بعصر التقنية و انهيار القيم .

و بعقلانية الليبرالية التي توسعت في تمديد منطقها الذي وصل إلى حدود حقيقة الإدراك و لكنه يواصل قبضته على كل ماهو بالوجود مهما كانت القيمة التي يحملها ، لذلك يعتبر ماركيوز العلاقة بين العقل و الواقع هي علاقة مطاوعة و انقياد و استهلاك المكرر: " و باتت الذات المستلبة مبتلعة من قبل وجودها المُستلب و لم يعد هناك غير بعد واحد ماثل في كل مكان و تحت شتى الأشكال " (ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد، 1988، صفحة 47) هذا البعد الواحد الذي شكلته الليبرالية يفرض سطوته و يضعف مقاومة الوضع القائم ، و يصبح الرفض مشروعا بأفق الإنتظار، و منه لا يقتصر الأمر حسب ماركيوز على العلاقة الوظيفية بين الحرية و العقل بل أيضا بينهما و بين العلاقات الإنسانية ، بحكم أن الذات الإنسانية تتوق إلى كسب ماهيتها الواعية و فهمها من خلال السيرورة التاريخية التي تبني تجاربها العينية من الطبيعة التي تحيط بها و هي غير مستقرة على حال لتخضع لسمة التبدّل و التغيّر، و لا يكون للفهم نجاحا إلا بالرفض و تفعيل وظيفة التعقل في مواجهة العقلانية الجديدة و المهيمنه على المتغير التاريخي و طرد الفكرة التي من الممكن أن تكون . و رغم وصف (آلان هاو) لماركيوز بأن :" مزاجه كئيب في كتابه الإنسان ذو البعد الواحد " (هاو ، 2003، صفحة 25) و إن صحت ملاحظته فإن هذه الكآبة تعود إلى معايشته للمتغيّر التاريخي و نتائجه على العقل و الحرية و الإنسان هذا الثلاثي الذي به يمكن للوجود المعرفي و القيمي و الحضاري أن يرسم معالم الإنسان القادم لا أن يقف في مفترق الطرق و يختار

السبيل حسب ضغط التقنية ، و الأهم في ذلك هو الفجوة بين الذات في علاقتها بالواقع الماثل و علاقتها بفكرة التأسيس للواقع القادم و هو ما اشتغلت عليه النظرية النقدية عند هاربرت ماركيوز بل تعد الهوة العميقة التي فرضت المقاومة و ميلاد الرفض الكبير لدى ماركيوز .

:" وليس من قبيل الصدفة أن يكون " الإنسان ذو البعد الواحد 1964م قد وصل في حينه ليقدم انفجارا عام 1968م تاريخ ترجمته إلى اللغة الفرنسية ، من خلال مصير المجتمع المافوق قمعي ، يجذر ماركيوز نقده الماركسي بنقد لأعراض مرض الثقافة نفسها " (آسون، 2005، صفحة 118) ليكون للنظرية النقدية مع بداية سبعينيات القرن الماضي تطورا بمنعرج جديد بحيث أعادت رسكلة النقد و مايقدمه للمعرفة و ما يجدده للعلوم و ما يتم نقده لمظاهر المجتمع ، و هو نقد يشير إلى مكامن الأخطاء و التحرر من هيمنة الرؤيا الأحادية و الشمولية بناء على مبدأ النظرية النقدية :" كن متشائما نظريا و متفائلا عمليا " (آسون، 2005، صفحة 119) و بين النظر و التحقق مسافة يكون فيها العقل النقدي يؤمن بما يجب أن يكون و ما التشاؤم النظري إلا تلك الحالة التي تأخذ فيها الفكرة البديلة لمراجعة الواقع وقتا للتردد و آخر للمغامرة التي تضع كل الاحتمالات الواردة و البارزة و الخفية ، وفي كل الأحوال النقد الماركيوزي مشروع نضال يحتكم إلى المرحلة و الزمن و الأمكنة و في كل ذلك الإنسان في هذه المهمة النضالية تتوقف عليه نتائج التحقق ، و لا يكون ذلك إلا بالتحرر من الشعور الوهمي و البحث عن واقع له قيمة و أثر حي لا كواقع ميت قابل للعرض و فقط ، و منه تعد الفلسفة الاجتماعية التي قدمها هاربرت ماركيوز من خلال مشروعه النقدي و انطلاقا من مساهمته بمدرسة فرانكفورت، و ضمن نشاط الفلسفة الألمانية المعاصرة وتحوله إلى بنية أساسية على مستوى التحليل النظري و العمل على

التحقق من خلال المنهج النقدي ، يعد مسارا للنقد الاجتماعي الماركيوزي وللفلسفة المعاصرة حيث أثر و تأثر بهدف تجديد العقل النقدي ، من منطلق أن :" برنامج الليبرالية يتلخص في كلمة واحدة هي الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وكل المطالب الأخرى لليبرالية مشتقة من المطلب الرئيسي " (ماركيوز، فلسفات النفي ، 2012، صفحة 24) لذلك اعتبرت الليبرالية النظام الممكن الوحيد للعلاقات الإجتماعية .

3.2 : فلسفة النفي و النضال ضد الليبرالية عند هاربرت ماركيوز

النضال مقاومة تكون ذات طابع فكري بعيدا عن العنف المادي من أجل تحقيق هدف إنساني ، و حالة المجتمع الليبرالي القائمة على الرأسمالية تستوجب النضال من أجل المحافظة على القيم ، بفضاء ساد به الإفلاس الذي سلب من الذات هويتها ليجعلها في متناول الاستهلاك التقني و تعد فلسفات النفي لدى ماركيوز أساسا لمراجعة الوعي المزيف لذلك كانت :" النظرية النقدية دافعًا فكريا مهما للحركة الطلابية الأوروبية في ستينيات القرن العشرين، ومع ذلك في الولايات المتحدة لم تُتَرْجَم معظَم الأعمال المؤثرة عن النظرية النقدية إلا في سبعينيات القرن العشرين ، إن الأفكار المعقَّدة عن الاغتراب وهيمنة الطبيعة والانتكاس واليوتوبيا وصناعة الثقافة التي تتضمَّنها تلك النظرية جعلتْها مهمة للمفكرين الشباب الذين كانوا يشبون وسط الأحوال المضطربة في ذلك الوقت " (برونر، 2016، صفحة 89) فالإنسان كان في ظرف يحاول فيه فهم ما يحدث حوله مستخدما الصناعة الثقافية منطلقا في نضاله من محيطه ، ليجعل من تلك الصناعة سلاح النفي و يستدعي المقابل من استدراج للفن كقضية مقاومة لمواجهة الثقافة الزائفة بوعي الرابح السعيد لا الخاسر التعيس بفضاء الليبرالية المنهك بنتائج الحداثة .

هذا النفي هو متابعة للمعايير السائدة والأوضاع القائمة، يكمن كذلك في النقد الموجه للذات و مراجعة معارفها بنفس الكيفية التي يزاول بها النفي اتجاه المجتمع أو ينبغي أن يزاوله على مختلف المستويات ، ولهذا يظل النقد هو التعبير الحي الفعال عن صحوة وعي الفرد و المجتمع ، وأهم الأسس التي يعتمد عليها تجاوز كلَّ وضع سائد و مظاهر قائمة تقاوم التغيير والتجديد ، و النفي هنا ينبغي أن لا يكتفي بالرفض وتعرية الحقائق بل يجب أن يضع تلك الصورة المناسبة لبناء واقع جديد فيه من الوضع القائم و الفكرة الضد و التي تتطلب التحقق .

و عليه الرفض عند ماركيوز هو محاولة دمج بين الوضع القائم و الفكرة المضادة لبناء واقع جديد يستجيب للراهن و يرسم معالم القادم ، و بالتالي لا يعني إلغاء الوضع القائم كليا لأن ذلك يعتبر محاولة مستحيلة في عرف التاريخ و حركة التغيّر الإجتماعي . الرفض و مخيلة الوضع المأمول ___ الوضع القائم مضاف إليه الفكرة المضادة ، و منه يصبح التناقض المركزي و الأساسي هو تناقض العقل الذي هو أداة كشف و سيطرة على الطبيعة و أيضا أداة النقد و التحليل لمفهوم السيطرة التي تحولت لذاته و لمصيره الأداتي و كل ذلك يرتبط بالوعي الحقيقي ، لذا نجد أن الإقطاعيين و السادة في كل المراحل التاريخية يسعون إلى إقناع العبيد بأنهم في حاجة دائمة إليهم من خلال وسائل أديولوجية و هو ما ذكره هيجل في - فينومينولوجيا العقل – و جدلية السيد و العبد ، كل ذلك يتيح للفكر مساحة من يعيد فيها المساءلة الذاتية و على هذا فالعقل مساويا للوعي ، والوعي بطبيعة الحال أكثر الحقائق جدارة بالملاحظة و الإدراك .

تعقيب :

تبلورت صياغة النقد الفلسفي و الاجتماعي بصفة خاصة بفضاء مدرسة فرانكفورت حيث يعد كتاب النظرية التقليديّة والنظرية النقدِية 1937م _ **Théorie critique et théorie traditionnelle** من أبرز الدراسات

لهوركهايمر و التي أسست للأسلبة ، حيث برز تفعيل النقد الثّقافي المجتمعي بشكل واضح وعميق ، فكانت المساءلة للمشكلة الاقتصاديّة و الهيمنة السياسية التي تعيق الحياة الاجتماعية بالاضافة إلى الأزمة البيئيّة ، و لكن الأكثر تحليلا هو النَّظَرِيَّة التقليديّة في التفكير مما أتاح الانفتاح على الفكر النقي الرافض للنظرية التقليدية التي تعتمد التجاوب بين الحس و العقل بل اتسع الأفق إلى المشكلات التي لها تأثيرها على الحياة بكل جوانبها ، فكانت الأسلبة المنهجية و المنطق الذي يعيد من خلاله العقل السؤال إلى مساره الأنطولوجي و القيمي ،كما يعد كتاب (جدل التنوير) لتيودور أدورنو من أوائل الكتب التي أصدرتها مدرسة فرانكفورت حيث تعود إلى أربعينيات القرن الماضي 1947 م ، وهي الفترة التي شهدت هجرة مفكري مدرسة فرانكفورت باتجاه الولايات المتحدة الأميركية بشكل خاص ، و ذلك بعد الأحداث التي عرفتها ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية و أصعبها مطاردة المفكّرين :" وقد كُتب هذا الكتاب بالاشتراك بين ماكس هوركهايمر وتيودو أدورنو، وقد اعتبر ألبرشت فيلمر أنّ هذا الكتاب هو النصّ المفتاح لمجمل النَّظَرِيَّة النَّقْدِيَّة الأولى؛ وذلك بوصفه يعيد رسم انتصار التنوير وتعاسته في آن واحد " (المحمداوي، 2013، صفحة 531) فمنذ البديات الأولى لتأسيس الفكر النقدي لمدرسة فرانكفورت مع الجيل الأول كان الرفض تعديل و بنية عقلية هدفها الوقوف على التنوير و تأثيره على الواقع الليبرالي للفرد والمجتمع :" وقد تجاوز كتاب الجدل السلبي الأطروحات الْفِكْرِيَّة التي توقّف عندها أدورنو في جدل العقل و التي تحدّدت مهمتها النظرية في اتهام العقل بقصوره، في حين أنّ الجدل السلبي يحدّ من اتهاماته المتوجهة نحو العقل كموضوعٍ ، " (طاهر، مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى هابرماس ، 1987، صفحة 60) و منه يعتبر السائد من التفكير الليبرالي لا يعبر عن الحقيقة التي تفصح عن الحياة الإنسانية :" هناك فرق بين الفكر السائد و الفكر الصحيح " (الحلبي، 2006، صفحة 10)

لأن التفكير الواعي هو الأداة التي تقيم واقعا يتوافق و اختياراتنا و لا يكون ذلك إلا بقرارات منافية للقناعات المبرمجة و التي تعكس الأحوال الاجتماعية ، لذلك تعد فلسفة الرفض سبيلا منطقيا لفتح أفق التفكير و مقاومة البعد الواحد .

لكن هذا الرفض و بهذا المشروع هو اضافة للمنجز النقدي الفلسفي بالقرن العشرين الذي شهد أزمة حادّة للسؤال التأملي أمام انتصارات التقنية و علوم المادة ، و قد يعيد مراجعة الوضع القائم و يبتعد عن الهيمنة المطلقة لليبرالية و يخفف من أزماتها الإنسانية ، و منه يعد الرفض الكبير حمولة فكرية منطلقها المخيّلة الجامحة لمفكر هدفة مقاومة الوضع القائم لا الوقوف عند حدود المخيلة .

4. خاتمة

الرفض الكبير و محاولة ماركيوز للاقتراب من الواقع و مهمة العقل النقدي اللامستحيلة و التي لا يمكن الحكم عليها بأنها مفارقة للواقع ، بل كان المشروع النقدي لهاربرت ماركيوز فلسفة تجدد ذاتها بواقعها الذي أصبح يستعين باللغة من أجل فرض مساءلة تحقق نقد الليبرالية و مآسيها الإنسانية من جهة و من ناحية أخرى عودة النقد الفلسفي إلى الفعل أمام الارتكاسية التي دخل بها إلى القرن العشرين ، وهو بذلك يبحث عن الأسس الفلسفية للحركات والتيارات الاجتماعية الحديثة و التي ساعدت على تراكم الوضع القائم و ربطه بالرفاهية المزيفة ، لذلك يعد الرفض مساءلة منطقية و محاكمة عقلية مبنية على فهم للممارسة العملية و جسر تحقيقها يعتمد على الجانب النظري للمهمة الفلسفية ، و ليست من أجل كشف الأساس العيني المستمد من الحركة الاجتماعية و المتمثل في الليبرالية و مسارها التاريخي المرتبط بالعلاقات الاجتماعية ، بل نجد ماركيوز يكتشف لها أسسًا فلسفية عميقة تقترب من العيني و لا تبتعد عن التفكير الفلسفي و هو الطابع المميز للقول الفلسفي فتنشأ تلك العلاقة بين المفاهيم

الكبرى في الفلسفة و السياق المنبثق من العلاقات الاجتماعية التي تكتسب هذه المفاهيم معناها الحقيقي منها و تتطور من خلال أزماتها و التفكير الدائم للحلول القابلة للتحقق ، ليصبح الرفض الكبير مشروع نقدي يعيد للقول الفلسفي مكانته بلحظة فارقة تريد أن تجعل من الفكر الوضعي سلطة فوق كل سلطة معرفية ، و مادام العقل يقاوم فهو قادر على تحقيق الممكن بالفعل بالأسلبة و التي لا تسمح للفكرة أن تبقى حبيسة المخيال و مهددة بالحكم عليها بأنها مجرد إتيوبيا ، بل مقاومة تنجز وعيا قيميا جديدا للأبعاد الإنسانية وجودا أنطولوجيا أصيلا يستحق أن يكون ممكنا .

قائمة المراجع :

- آلان هاو ، (2003)،النظرية النقدية : *مدرسة فرانكفورت* ، تر : ثائر ديب ، دار العين للنشر ، مصر.

- المحمداوي علي عبود، (2013)، ومجموعة من الأكاديميين العرب: *الفلسفة الغربية المعاصرة*، لبنان .

- ابن منظور، (2016)،*لسان العرب* ، الجزء 10، حرف النون ، دار المعارف ، لبنان .

- بول لوران آسون ،(2005)،*مدرسة فرانكفورت* ، تر: سعاد حرب ، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، لبنان.

- حنان مصطفى عبدالرحيم ،(2010)، *الفن و السياسة في فلسفة هاربرت ماركيوز* ، ط1، التنوير للطباعة و النشر و التوزيع ، لبنان.

- ستيفن إريك برونر ،(2016)، *النظرية النقدية* ، تر: سارة عادل ، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة ، مصر.

- علاء طاهر، (1987)،*مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى هبرماس* ،ط 1، لبنان ، مركز الإنماء القومي.

-علاء الحلبي ،(2006)، *العقل الكوني الجزء الأول* ، دار دمشق ، ط1، سوريا.

- علاء طاهر ، (2005) ، *نهايات الفضاء الفلسفي* : الفلسفة الغربية بين اللحظة الآنية و المستقبل ، ط1، مكتبة مدبولي ، مصر.

- غاستون باشلار ،(1985)، *فلسفة الرفض* ، تر: خليل أحمد خليل ، دار الحداثة ، لبنان .

- لالاند أندريه ،(2011)، *موسوعة لالاند الفلسفية* ، سلسلة تيارات فكرية معاصرة جامعة الأزهر ، مصر.

- مجموعة من الأكادميين ،(2013)،*صناعة العقل الغربي من مركزية الحداثة إلى التشفير المزدوج*، ط 1، ج1 ، منشورات ضفاف، المغرب.

- هاربرت ماركيوز ،(1988)، *الإنسان ذو البعد الواحد* ، تر: جورج طرابيشي ، ط3، منشورات دار الآداب ، لبنان.

- هاربرت ماركيوز ،(2012)، *فلسفات النفي* ، تر: مجاهد عبدالمنعم مجاهد ، مكتبة دار الكلمة ، ط1، مصر.

- équipe d'anciens étudiants en sciences humaines ، *DICTIONNAIRE DE PHILOSOPHIE 2008*

- https://la-philosophie.com/dictionnaire-philosophie 11/ 11/2022

- Marcuse, H. (1971). *An essay on liberation* (Vol 319). Beacon.Press.